

مفهوم الصبر وقيمه في الإسلام



يقول الله تعالى في كتابه المجيد: (وَلَنَذِيبِنَا وَأَنذِرْنَا كُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْمِهِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ) (البقرة/ 155-157).

يؤكد الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات الكريمة وغيرها، أن الصبر يمثل القيمة الإنسانية التي ترتفع بالإنسان إلى مواقع رضى الله، بحيث إنّه ينال الصلوات منه سبحانه وتعالى، المعبّرة عن رضوان الله ومغفرته ورحمته، وإعطاء صفة الهدى للصابرين، لأنّ الله عزّ وجلّ يريد للإنسان أن يكون قويا أمام التحديات، سواء في تحدي النفس الأمّارة بالسوء التي تجرّ الإنسان إلى خطّ الانحراف والبعد عن الله تعالى والتمرد عليه، أو في ما يواجهه الإنسان في حياته من المصائب والمشاكل والخسارة وكلّ أنواع البلاء من المرض وغيره.

إنّ الله تعالى يريد للإنسان أن يتماسك ولا يسقط أمام أيّ حادثٍ يحدث له، أو أمام أيّ مشكلة تعرض له، أو أيّ شعور يتحرّك في داخل نفسه ليقوده إلى بعض الأعمال السلبية. فقد يواجه الإنسان بعض حالات الخوف، سواء من خلال ضغط القوى الظالمة والمستكبرة، أو من خلال بعض الأوضاع التي يخاف فيها الإنسان على نفسه أو أهله أو ممتلكاته: (وَلَنَذِيبِنَا وَأَنذِرْنَا كُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ - وذلك عندما تنهدّد المجاعة المجتمع من خلال الأزمات الاقتصادية والمعيشية التي تنال الواقع - ونَقْمِهِ مِنَ الْأَمْوَالِ - كما نلاحظه في نقص الأموال من خلال الأزمة الاقتصادية المالية الكونية التي أصابت الناس جميعاً، ومنهم المؤمنون الذين فقدوا أرصدهم المالية بفعل هذه الأزمة - وَالْأَنْفُسِ - وذلك عندما يفقد الإنسان بعض أحبائه وأغزائه - وَالثَّمَرَاتِ - عندما يحصل الجذب في الأراضي ويقلّ المطر).

وإذا كان الله يقول: (وَلَنَذِرَنَّهُمْ زُرَّامًا ۖ وَلَكِنَّ طَبِيعَةَ الْحَيَاةِ وَالْأَسْبَابِ الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ تَعَالَى قَدْ تَفَرَّضَ الْكَثِيرُ مِنْ ذَلِكَ، لِأَنَّ اللَّهَ جَعَلَ لِلْحَيَاةِ قَوَانِينَ قَدْ تُؤَدِّي إِلَى النِّقْصِ أَوْ الزِّيَادَةِ، فَاللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ لَهُ، وَالْكَثِيرُ مِنَ النَّاسِ يَسْقُطُونَ أَمَامَ أَنْوَاعِ الْبَلَاءِ هَذِهِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَرِيدُ لِلإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ قَوِيًّا صَلْبًا مُتَوَازِنًا، فَلَا يَسْقُطُ الْبَلَاءُ بِحَيْثُ يَفْقَدُ إِيمَانَهُ وَعِزَّتَهُ وَحُرِّيَّتَهُ، لِأَنَّ النِّقْصَ الَّذِي يُوَاجِهُهُ الْإِنْسَانُ فِي مَوْقِعٍ مَا، يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ دَافِعًا لَهُ لِتَجْدِيدِ حَرَكَتِهِ، لِتَفَادِي هَذَا النِّقْصِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَلِيَعُوِّضَ مَا خَسِرَهُ بِمَا يَمْلِكُهُ مِنْ طَاقَةِ وَجْهِهِ.

- وَبَشَّرَ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ - نحن ملك الله - وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ - فسنرجع إلى الله تعالى، وسنرى جزاء هذا الصبر، وهو الرحمة والثواب والمغفرة - أَوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ - فالصَّابِرِينَ على الصَّابِرِينَ كما يصلي على رسوله وعلى المؤمنين، والصلاة من الله على المؤمنين هي المغفرة والرحمة والرضوان منه، أمَّا الصلاة من الله على النبي (ص) فإنها تعني رفع درجته - وَرَحْمَةٌ - فالصَّابِرِينَ في أنفسهم وأهلهم موكل بأنواع حياتهم - وَأَوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ». .

ونقرأ في آيةٍ أُخْرَى عن هؤلاء الذين أخلصوا الله وساروا في خطى الأنبياء، قوله تعالى: (وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍِّّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيؤُنَ كَثِيرٌ - وهم الذين عاشوا للإخلاص لله تعالى - فَمَا هَانُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) (آل عمران/ 146). ويقول تعالى: (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَازَعُوا - لا يكن مجتمعكم مجتمع المنازعات والخلافات التي تضعفكم - فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ - لأنَّ الأُمَّةَ التي يتحدَّى بعضها الآخر، ويقتل بعضها بعضاً ستفشل، بينما إذا توحدت فستنجح - وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) (الأنفال/ 46). وورد في نداء الله تعالى للنبي (ص): (فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا) (المعارج/ 5)، والصبر الجميل هو الذي ليس فيه شكوى إلى الناس، بل الشكوى إلى الله تعالى.

صبر رسول الله في مواجهة التحديات

وهناك حديثٌ عن الإمام الصادق (ع)، يتحدث فيه عن أسلوب النبي (ص) في مواجهة الأوضاع التي كان المشركون يتحدونها فيها، وكان الله تعالى يواكب آلام نبيه وأحزانه ومواقفه، فيُنزل عليه في كلِّ مرحلة من المراحل آيةً، يقول (ع): «إِنَّ مَنْ صَبَرَ صَبْرًا قَلِيلًا - لأنَّ العمر مهما امتدَّ فإنَّه قصير - وَإِنَّ مَنْ جَزَعَ جَزَعًا قَلِيلًا». ثمَّ قال (ع): «عليك بالصبر في جميع أُمُورِكَ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْعَثُ مُحَمَّدًا فَأَمْرُهُ بِالصَّبْرِ وَالرَّفْقِ، فَقَالَ تَعَالَى: (وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا - ليس فيه قسوةٌ أو شدةٌ - وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ) (المزمل/ 10-11) - فقد تكفَّلَ الله سبحانه بمواجهة مَنْ غرَّبَتْهم أموالهم والنِّعَمُ المصدَّقة عليهم - وقال تبارك وتعالى: (ادْفَعْ بِاللَّيْئِ هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْدِكَ وَبَيْدِنَا هَدَاوَةً كَأَنَّ نَزَّهُ وَلِيًّا حَمِيمًا * وَمَا يُلَاقِيهَا إِلَّا السَّالِسُونَ * وَالَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَاقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) (فصلت/ 34-35) - فقد أمره الله سبحانه بالصبر على التحديات، ليكون أسلوبه مع أعدائه الأسلوب الذي يحولهم إلى أصدقاء - فصبر رسول الله (ص) حتى نالوه بالعظائم ورموه بها - كاتهامه بالسحر والجنون والافتراء على الله، وغيرها من أساليب الأذى التي مارسوها - فضاقت صدره - لا من خلال الحالة النفسية الخاصة، بل لأنَّ مثل هذه الاتهامات قد تعطلَّ عليه (ص) حركته والتفاف الناس حوله - فأُنزلَ الله عزَّ وجلَّ: (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ) (الحجر/ 97-98) - أتركهم وانفتح على الله، وسبِّحْه، واسجد بين يديه، والله يفرِّج عنك ويشرك لك صدرك - ثمَّ كذبوه ورموه، فحزن لذلك، فأُنزلَ الله عزَّ وجلَّ: (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكَذِّبُونَكَ وَلَئِنْ كُنْتُمْ إِلَّا أَلْفًا مِمَّنْ يَبْغُونَ * فَأُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا) (الأنعام/ 33-34) - وسيأتيك النصر، كما نصر الله الرُّسُلَ الذين قبلك - فألزم النبي (ص) نفسه الصبر فتعدوا فذكروا الله تبارك وتعالى وكذبوه - عندما جحدوا بآيات الله تعالى - فقال (ص):

«قد صبرت في نفسي وأهلي وعرضي ولا صبر لي على ذكر إلهي»، فأُنزل ﴿عزَّ وجلَّ﴾: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ * فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ) (ق/ 38-39)، فصبر النبي (ص) في جميع أحواله، ثمَّ بُشِّرَ في عترته بالأئمة ووُصِفوا بالصبر، فقال جلَّ ثناؤه: (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) (السجدة/ 24)، فعند ذلك قال (ص): «الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد»، فشكر ﴿عزَّ وجلَّ﴾ ذلك له فأُنزل ﴿تعالى﴾: (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ) (الأعراف/ 137)، فقال (ص): «إنَّه بشري وانتقام»، فأباح ﴿عزَّ وجلَّ﴾ له قتال المشركين، فأُنزل ﴿تعالى﴾: (فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُواهُمْ وَاصْرُوهُمْ فِي الْعُدُوكُمْ وَإِنَّكُمْ لَمُتَّعُونَ بِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (البقرة/ 191)، فقتلهم ﴿عزَّ وجلَّ﴾ على يدي رسوله وأحبابه، وجعل له ثواب صبره مع ما ادَّخره له في الآخرة. «فمن صبر واحتسب لم يخرج من الدنيا حتى يقرَّ ﴿عزَّ وجلَّ﴾ له عينه في أعدائه، مع ما يدَّخر له في الآخرة».

ملازمة الصبر للإيمان

وعن الصادق (ع): «إذا دخل المؤمن في قبره، كانت الصلاة عن يمينه - كأنَّ ﴿عزَّ وجلَّ﴾ يمثل الصلاة كشيء حيٍّ - والزكاة عن يساره، والبرُّ مُطلٌّ عليه، ويتنحى الصبر ناحيةً، فإذا دخل عليه المَلَكُ اللذان يليان مساءلته قال الصبر للصلاة والزكاة والبرِّ: دونكم صاحبكم، فإن عجزتم عنه فأنا دونه». وعن الإمام عليٍّ (ع) أنَّه قال: «الصبر صبران: صبر عند المصيبة حسنٌ جميل، وأحسن من ذلك الصبر عند ما حرَّم ﴿عزَّ وجلَّ﴾ عليك - عندما تشتهي نفسك الحرام فتصبر وتشعر بالحرمان - والذكر ذكران: ذكر ﴿عزَّ وجلَّ﴾ عند المصيبة - أن يقول: (إِنِّي لَمَّا لَمْ يَلِدْهُ رَجِيعُونَ) (البقرة/ 156) - وأفضل من ذلك ذكر ﴿عزَّ وجلَّ﴾ عند ما حرَّم عليك فيكون حازماً». وعن الإمام الباقر (ع) قال: «لما حضرت أبي عليٍّ بن الحسين الوفاة، ضمَّني إلى صدره وقال: يا بني، أوصيك بما أوصاني به أبي حين حضرته الوفاة، وبما ذكر أنَّ أباه أوصاه به: يا بُني، اصبر على الحقِّ وإن كان مرَّاً». فالحقُّ مكلف، لأنَّ الناس قد يكونون ضدَّ الحقِّ، فإذا تكلمت بكلمة الحقِّ، فقد يتهمونك ويضطهدونك، فإذا واجهت ذلك كلاًه فعليك أن تتماسك.

وعن الإمام الصادق (ع) أنَّه قال: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا ذهب الرأس ذهب الجسد، كذلك إذا ذهب الصبر ذهب الإيمان». وعن الإمام الباقر (ع): «الجنة محفوفة بالمكاره والصبر، فمن صبر على المكاره في الدنيا دخل الجنة، وجهنم محفوفة باللذات والشهوات، فمن أعطى نفسه لذَّتها وشهوتها دخل النار».

هكذا يريد ﴿عزَّ وجلَّ﴾ تعالى للإنسان عندما يواجه الحياة، في كلِّ مشاكلها ومتاعبها وخسائرها وأوضاعها ومصائبها، أن يواجهها بالصبر وإرجاع الأمر إلى ﴿عزَّ وجلَّ﴾، وقد حدَّثنا ﴿عزَّ وجلَّ﴾ تعالى عن الصابرين في البأساء والضراء، لذلك علينا أن نعيش إنسانيتنا بقوة، وأن نعيش الانفتاح واللجوء إلى ﴿عزَّ وجلَّ﴾ في كلِّ شيء، فهو حسبنا ونعم الوكيل. ▶